

الدين والفكر في شرك الاستبداد: جولة في الفكر السياسي للمسلمين

المؤلف: السيد محمد خاتمي

ترجمة: ماجد الغرباوي

الطبعة: الأولى ٢٠٠١

الناشر: دار الفكر - دمشق

مثل وصول السيد محمد خاتمي إلى منصب رئاسة الجمهورية الإسلامية في إيران تحدياً كبيراً للمقولة التي كانت تراهن على عدم إمكان التوفيق بين مقتضيات الديمقراطية، وبين مفاهيم الإسلام السياسي.

وفي كتابه الدين والفكر في شرك الاستبداد، يرى خاتمي: أن الفكر السياسي عند المسلمين مر بمراحل ثلاث، هي:

- ١- النبوة والخلافة الراشدة.
- ٢- الفترة التي تمتد من تحول الخلافة إلى ملكية مستبدة إلى لقاء العالم الإسلامي بالحضارة الغربية.
- ٣- المرحلة الراهنة وتمتد من بدايات التعرف على الغرب إلى عصرنا الحاضر.

ويؤكد خاتمي أن الغرب استطاع في العصر الحديث أن يعيد النظر في تراثه، لينطلق به من جديد، فأنتج نظاماً تشتمل على كثير من عناصر الطرافة والجدة، التي أدهشت المسلمين فأعاقتهم عن التعاطي مع هذا الغرب تعاطياً نقدياً. ومنعهم ذلك في كثير من الأحيان عن تكرار تجربة الغرب، مع تراثهم الذي لو أعيد النظر فيه من جديد،

لأنتج أنماطاً تستطيع مواجهة الأنماط الفكرية الغربية. وفي اختيار خاتمي لعنوان كتابه إشارة مقصودة إلى التمييز بين الإسلام، وبين الفكر الذي أنتجه المسلمون الذي ربما يتفق مع الإسلام، وربما يختلف عنه.

وأكثر ما يركز الكاتب على المرحلة الثانية، فيعرض لآراء مجموعة من فلاسفة تلك المرحلة منهم: الفارابي، وأبو الحسن العامري، والماوردي، والغزالي، وابن خلدون.

الملكية السياسية:

يعتمد الكاتب رؤية تنطلق من أن العالم الإسلامي وقع تحت سيادة نظام استبدادي، أدى إلى ضمور الفكر السياسي عند المسلمين؛ حيث إن نظام «الغلبة» لا يتحمل أي منافس في ساحة الصراع الفكري، أو على مستوى الواقع، ما أدى إلى الجنوح صوب التصوف والهيام في أوديته الحالية.

ولقد بدأ البحث الفلسفي عند المسلمين في حقيقة السياسية، مع الفارابي الذي كان رائداً من رواد هذا المجال، ثم اتجه بعد ذلك إلى تبرير الواقع المعيش نتيجة الغلبة، ونزولاً عند سطوة السياسة الحاكمة. والشيء عينه وقع فيه الخواجة نصير الدين الطوسي؛ حيث يُنظر في كتابه: «أخلاق ناصري» لشيء بعيد المنال استمده، أو استوحاه من نتاجات الفارابي، ولكنه عندما يخرج من

مكتبه إلى عالم الواقع يلتحق بمتغلب لا يمت إليه بعلاقة دينية أو فكرية، وإن كان هذا الارتباط مبنياً على مصالح دينية قدرها، نصير الدين في وقتها.

الحكم مناط بالأمة:

يعتقد السيد خاتمي أن المسلمين اتفقوا على أن شؤون الحكم وما يتعلق به مرتبط بالأمة ويستشهد لذلك بفكرة البيعة التي هي عقد بين الحاكم والمحكومين. وبالتالي، يخضع للشروط التعاقدية المتفق عليها، فإذا لم يلتزم الحاكم بشروط البيعة سقطت ولايته على الأمة. ومن هنا عانت كثير من السلطات السياسية في التاريخ الإسلامي من فقدان المشروعية السياسية، وتوسلت إلى بقائها بالسيف والاستبداد. وظهرت فلسفات تبريرية تشرع هذه السلطة على أساس الغلبة فكانت نظرية «العادل المستبد» وما شابها من النظريات.

الفارابي مؤسس الفلسفة الإسلامية:

عرف المسلمون الفلسفة وطرائق التفكير الفلسفي قبل الفارابي بمائتي سنة. ويعد الكندي من أهم المشتغلين على الفلسفة قبل الفارابي، إلا أن ما يميز هذا الأخير هو أنه استطاع أن يقدم نسفاً فلسفياً منظماً بخلاف من سبقه من الفلاسفة. من هنا يمكن عدّه أبا الفلسفة الإسلامية.

ويقسم الفارابي المدن إلى أقسام ستة، هي:

١- المدينة الضرورية: وهي التي يجتمع أهلها لتأمين ضروراتهم.

٢- مدينة النذالة: وهي التي يسعى أهلها إلى جمع الأموال ومراكمة الثروات والقوة.

٣- مدينة الخسة: وهي التي يحاول أهلها الوصول إلى السعادات الحسية، مضافاً إلى جمع الثروة.

٤- مدينة الكرامة: وهي التي يسعى أهلها إلى السعادات غير الحسية.

٥- مدينة التغلب: وهي التي يكون المعيار الأول فيها هو القوة، والسلطة، والرئيس فيها هو الأكثر قوة. وتتحول هذه المدينة بإزدياد القوة إلى مدينة الجبارين.

٦- مدينة الجماعة: الناس في هذه المدينة أحرار متساوون لا فضل لأحد منهم على أحد، والفاضل فيها هو من يؤمن أكبر قدر من الحرية لأفراد هذه المدينة.

ديمقراطية الفارابي:

يقف الفارابي من الديمقراطية موقفاً سلبياً؛ حيث إنه لا يرى الكثرة معياراً، بل على العكس فإن الناس سوف يرحبون بمن يؤمن لهم رغباتهم مهما كان نوعها. والرئاسة قد تشتري بالمال في بعض أقسام المدن المشار إليها في تقسيم الفارابي.

وعلى أي حال مهما كان الموقف من النتائج التي يتبناها السيد محمد خاتمي في كتابه إلا أنه يبقى دراسة تتميز بالجدية وبخاصة عندما يقوم بها من خبر العمل السياسي، وذاق حلاوة قبول الجماهير له، حيث من البعيد لباحث كالسيد خاتمي أن يتبنى موقفاً سلبياً من الديمقراطية على الأقل في الظرف الحالي.